جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

المقابسات لأبي حيان التوحيدي
دراسة في لسانيات النص

أطروحة تقدَّم بها الطالب

أحمد هادي شمام

إلى مجلس كلية الآداب في الجامعة المستنصرية
وهي جزءٌ من متطلباتِ نيل شهادة دكتوراه فلسفة في اللغةِ العربيَّةِ وآدابِها

إشراف

أ. م. د . محمَّد سامي أحمد

رجب ١٤٣٥هـ

أيار ٢٠١٤م

المستخلص

هناك مؤشرات أكيدة على أنّ التوحيدي لم ينقل إلينا النصوص عن غيره نقلاً حرفياً بل تصرف فيها بالزيادة والنقصان والتصحيح لأغراض علمية وأخرى أدبية حتى طبعها بأسلوبه الخاص الذي ميّزه من غيره، فصيّر الكلام الفلسفي المستغلق كلاماً أدبياً رائقاً مستساغاً، ونجد مثل هذه الإشارة في مواطن كثيرة من كتاب المقابسات، نذكر منها قوله في المقابسة الحادية والتسعين: ((**قد مَرَّت في هذه المقابسة التي تقدمت فنونٌ من الحكمة، وأنواعٌ من القول، ليس لي من جميعها إلا حظّ الرواية عن هؤلاء الشيوخ، وإن كنت قد استنفدت الطاقة في تنقيتها، وتوخي الحق فيها، بزيادة يسيرة لا تصح إلا بها، أو نقص خفي لا يبالى به**))[1].

توصّل البحث إلى وضع تعريف للمقابسة، هو: المقابسةُ هي أَخذٌ يسيرٌ مستفادٌ من العِلمِ من محاورات طويلة تعجُّ بها مجالسُ العلماء التي كان يحضرها التوحيدي ويشترك فيها، وكذلك فإنَّ التوحيدي لم يُسبق بهذا اللون من النثر، ولم يكتب أحد على منواله من بعده، وتقع المقابسات في ضمن النثر إذ تتماز فنونه بالبلاغة، وحسن الصياغة، وكذلك فإنّ المقابسات حديثٌ بليغٌ يتداخلُ فيه الوصف مع الحوار والنقاش الذي انمازت به.

في تطبيقنا لآليات السبك على مقابسات التوحيدي وجدنا أن هذه الأدوات، والوسائل تسهم إلى حدٍّ بعيد في تماسك النص وتحقيق النصية فيه.

ساعد التحديد في تحقق الخاصّية النصّية، بفضل أدوات التعريف التي تتقدّم العبارات المتضمنة دلالات على ما سبق ذكره من الألفاظ، التي تكون في أول ورودها في النص نكرات، وإن كانت في قوالبها اللفظية معارف.

أسهمت الإحالة التي حقّقتها الألفاظ الكنائية في نصوص المقابسات، سواء أكانت مشتركة (داخل النصّ)، أم إحالات على المقام (خارج النصّ) في ترابطه على المستوى الدلالي، وخلقت نوعاً من المطابقة بين اللفظ الكنائي وما يحيل عليه داخل البنية اللغوية، وهذه المطابقة هي التي حقّقت الترابط بين أجزاء النصّ ومن ثمّ تماسكه.

تبرز أهمية الإحالة في توطيد أواصر السبك في النص، ولا سيما في بحث الموضوعات الفلسفية والفكرية والميتافيزيقية؛ فيعتمد التوحيدي حينها على تكثيف استعماله للإحالة في مقابساته، وبأنواعها المختلفة لتنويع أساليب السبك من داخل النص وخارجه، فهو يخاطب عقول سامعيه وقارئيه طارحاً بين أيديهم تجربته الفلسفية وموقفه من قضايا فلسفية كثيرة كالخالق، والخلق، والوجود، والفناء، والتدين، والتقوى، والعبادة، والتوحيد، والشرك، والأدب، والنحو، والفنون، والأخلاق، والصداقة، والصراحة، والوفاء، والإيثار، والعلوم، والمعرفة...وغيرها كثير.

حقق الحذف في نصوص المقابسات تماسك نصها استناداً إلى ما منحه السياق الداخلي للنصّ من معرفة بالمفردات المحذوفة، وكذلك بالاعتماد على السياق الخارجي الذي يستند أساساً إلى مجموعة الأنساق المعرفية التي يحصل عليها المتلقّي من تجاربه الماضية في ضمن التفاعل الاجتماعي اللغوي، والتي هي المرجع الأساس في فهمنا للنصّ.

حقّق الترابط الغاية النصّية بوساطة التماسك، وتقوية الأواصر فيما بين الجمل، وجعل متواليات الجمل متراصّة، وليس من طريق الإحالة أو الإشارة إلى ما سبق أو ما لحِق من مفردات أو عبارات داخل النصّ فحسب، وهذا جوهر الاختلاف بينه ووسائل التماسك الأخرى، وما كان يميّزه منها.

بالنظر إلى كتاب المقابسات نجد أنّه قد شاع بين الباحثين والمؤرخين السمة الفلسفية له، ولما يبرع به كاتبه في هذا الصدد، ومن ثمَّ فقد ضمّنه الكثير من ثقافته الفلسفية وما يؤمن به ويعمل على وفقه؛ ولكننا إذا أجرينا نظرة فاحصة في جميع مقابساته بَانَ لنا عدم إطلاقية مثل هذا الحكم، فهو كتاب موسوعي جامع، يعالج العديد من القضايا المؤتلفة والمختلفة في الوقت عينه، وحينما نقف عند ما يشاع عن هذا الكتاب من الصبغة الفلسفية فإنّ معنى هذا أنه يوجد ارتباط وثيق بين هذه الصفة والجماعة التواصلية الموجّه إليها الكتاب، وإنّ هذا يعني من جهة ثانية أنّ الكتاب موجّه إلى المهتمين بالفلسفة، وفنونها وأدواتها، وطرائق معالجتها القضايا المثارة في الفلسفة، ومن ثمَّ يأخذنا هذا الكلام إلى أنّ معيار القبول متحقق عند هذه الطبقة من المتلقين فحسب؛ ولكنّ الأمر على خلاف ذلك؛ فنعم: قد يصح هذا الكلام على بعض مقابساته، أو بعض فقراتها؛ ولكنّه لا يتصف بالاضطراد في جميعه.

يُعدُّ القصد، والقبول أكثر معيارين ظهوراً في معايير النصية لوقوفهما في طرفي عملية الاتصال، المرسل والمتلقي؛ وهما يبينان كيفية تآلف العناصر المكونة للنص وإفادتها المعنى؛ ولكنهما في الوقت عينه يعجزان عن تزويدنا بحدود فصل مطلقة وراسخة تميز بين النصوص وغير النصوص في الموقف التواصلي.

يمارس السياق وظيفة الوعاء للنص، وهو بذلك يشبه وظيفة الفلسفة التي وصفت قديماً بأنّها وعاء العلوم، فكذلك السياق بالنسبة للنص هو الحيّز الذي يُبحر فيه وينطلق إلى آفاقه الجديدة في تحقيق المعنى المراد منه.

تبلغ أهمية سياق المقام للنصوص في عملية ربط النصّ بمجموعة الأحداث المحيطة به، فمجموع السياقات المقامية التي تحيط بالنصّ، سواء أكانت زمانية، أم مكانية؛ أسهمت معرفتها، بصورة فاعلة، في تفسير المعاني والمقاصد التي حملها النص إلى المتلقي.

تتبدى لنا أهمية سياق المقام في تحديد البعد التداولي للنص، فرأينا كيف أثّرت السياقات المحيطة سواء: الاجتماعية، أم النفسية، أم الثقافية... إلخ، في فهمنا له والذي أعاننا عليه المعرفة المسبقة

بعالمه وتحقيق الخاصية النصية من طريق ترابطه مع الأحداث المحيطة به، ومن ثمَّ تحققت عملية التواصل بتماسك أجزائه اللغوية فيما بينها دلالياً بفضل المعلومات التي يقدمها، وهذه هي الغاية النصية المنشودة من كل نصٍّ منتجٍ في عالم الإبداع البشري الذي لا ينضب؛ وبذلك تتحقق الغاية التي من أجلها تدور عجلة الإبداع فتطرح ثمارها إلينا.

أوجدت ثنائية التناص التي تضمنتها نصوص المقابسات، والمتمثّلة بالنصوص الدينية، والأسطورية، والشعرية، التي عملت على إثراء النصّ بالتجارب التي حوتها، والتي أسهم استدعاؤها في إيصال الأفكار التي طرحتها نصوص المقابسات إلى جماعة المتلقين.

كان للجانب الإعلامي الذي رفدتنا به نصوص المقابسات أثر كبير في مسح تلك النصوص بميزة التشويق، ودوران عجلة البحث المستمر في سبيل الوصول إلى كامل جوانب الإعلامية التي تحملها إلينا مقابسات التوحيدي.